

تراث لبنان تحت النار: ذاكرة تُمحي ببطء حماية الآثار مسؤولة وطنية والإهمال يسرّع اندثارها

بين الحروب المتلاحقة والاهمال المزمن، يقف التراث اللبناني اليوم امام تحديات تهدد ذاكرته وهويته الثقافية. من المواقع الاثرية والمعالم التاريخية الى الحرف والعادات الشعبية، تتعرض مكونات هذا الارث لخطر التدمير والاندثار. فكيف يمكن حماية ما تبقى، وعلى من تقع مسؤولية انقاذ التراث اللبناني قبل فوات الاوان؟



استاذ التاريخ شارل الحايك.

كذلك تضررت البيئة التراثية والطبيعية المحيطة بهذه المواقع، خصوصا بساتين الزيتون المعمرة التي تعد جزءا من التراث الزراعي والثقافي للجنوب.

لا شك في ان التحديات كبيرة، اذ يعاني قطاع الآثار في لبنان من ضعف التمويل ونقص امکانات البشرية والتقنية، اضافة الى غياب خطط وطنية طويلة الامد لحماية التراث خلال الازمات. كما ان اعادة الاعمار العشوائية قد تشكل خطرا اضافيا على المباني التاريخية إذا لم تخضع لرقابة صارمة ومعايير علمية واضحة.

ان الحفاظ على التراث اللبناني مسؤولية مشتركة بين الدولة والمجتمع والمؤسسات الثقافية والتربوية، لأن حماية الآثار لا تعني فقط انقاذ حجارة قديمة، بل الحفاظ على ذاكرة وطن وهوية شعب وتاريخ اجيال متعاقبة.

التراث اللبناني يواجه خطرا وجوديا متصاعدا

كما تعرض سوق النبطية التراثي لدمار واسع، وهو من اقدم الاسواق الشعبية في الجنوب اللبناني، ويشكل مركزا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا لأهالي المنطقة.

وطال القصف ايضا عددا من المساجد والكنائس التاريخية في القرى الجنوبية، ومنها مسجد بليدا التاريخي، اضافة الى كنائس قديمة تحمل قيمة دينية وثقافية كبيرة.

برز خلال الحرب الاسرائيلية الاخيرة على لبنان، ملف حماية الآثار والتراث الثقافي كواحد من أكثر الملفات الحاحا، في ظل الاضرار الكبيرة التي طالت مواقع تاريخية ودينية واسواقا تراثية، خصوصا في الجنوب. وقد سارعت الدولة اللبنانية، بالتعاون مع الجهات الدولية المختصة، الى اتخاذ خطوات تهدف الى الحد من اندثار هذا الارث وحمايته من التدمير.

في مقدمة هذه الخطوات، عملت وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار على توثيق الاضرار التي اصابت المواقع التراثية التي شملت معالم تاريخية، ومساجد وكنائس قديمة، اضافة الى مبان تراثية واسواق شعبية تضررت بفعل القصف.

كما كثفت الدولة تعاونها مع منظمة الاونيسكو والمنظمات الدولية المعنية بالتراث، بهدف تأمين حماية عاجلة لبعض المواقع المهددة. ففي الاول من نيسان 2026، عقدت منظمة الاونيسكو

اجتماعا استثنائيا بهدف تعزيز حماية التراث الثقافي في لبنان، وذلك بناء على طلب الدولة اللبنانية. وقد تمثل هذا الاجتماع في جلسة استثنائية للجنة حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح، وأسفر عن منح الحماية المعززة المؤقتة لـ 39 موقعا ثقافيا، الى جانب تقديم مساعدة مالية دولية تتجاوز 100,000 دولار لدعم العمليات الطارئة على الارض. اضافة الى الـ 34 الموضوعة عام 2024 ليلبلغ العدد الاجمالي 73 موقعا، ليكون لبنان البلد الذي يتمتع بأوسع وأكبر حماية معززة لمواقع.

من أبرز المعالم التي تضررت قلعة شمع في قضاء صور، وهي من القلاع التاريخية التي تشرف على منطقة غنية بالآثار والمعالم القديمة. وقد ادى القصف الى الحاق اضرار بأجزاء من القلعة ومحيطها.

المقال

الذاكرة المهتددة

لا تقتصر الحروب الحديثة على ساحات القتال والدمار المادي فقط، بل تمتد لتأخذ شكلا أخطر واعمق يعرف بـ"الحروب الثقافية"، وهي حروب تستهدف ذاكرة الشعوب، وتسعى الى اضعاف هويتها عبر طمس تراثها وتشويه تاريخها واضعاف ارتباطها بأرضها وموروثها. وفي حالات كثيرة، تأتي هذه الحروب مرافقة للحروب الميدانية، فتكتمل الدمار المادي بدمار رمزي طويل الامد.

تتمثل الحروب الثقافية في استهداف المواقع الاثرية، تدمير المعالم التاريخية، حرق المكتبات، وتهجير السكان من اماكنهم الاصلية، اضافة الى تغيير الطابع العمراني للمدن بشكل يفقدها هويتها الاصلية. وعندما يدمر موقع أثري أو يهمل عمدا، فإن الخسارة لا تكون في الحجر فقط، بل في القصة التي يحملها هذا الحجر، وفي الذاكرة التي تربط الناس بتاريخهم.

في لبنان، تبرز خطورة هذا النوع من الحروب بشكل واضح، حيث تتعرض مواقع تراثية لضغوط دائمة بين الاهمال، الحروب، وعدم الاستقرار، مما يهدد استمرارية حضورها كرموز للهوية الوطنية. فهذه المواقع ليست مجرد آثار سياحية، بل شواهد على تعاقب حضارات ساهمت في تشكيل هوية المنطقة. اما الهدف الاساسي من الحروب الثقافية فهو اضعاف الرابط بين الانسان وارضه، عبر خلق فراغ في الذاكرة التاريخية، بحيث يصبح المجتمع أكثر قابلية لفقدان انتمايته. وعندما تمحي المعالم وتضعف الرواية التاريخية، يسهل استبدال الهوية الاصلية بهويات مشوهة أو مستوردة. لمواجهة هذه التحديات، يجب اولا تعزيز الوعي الثقافي والتربوي داخل المجتمعات، من خلال ادخال التراث والتاريخ المحلي بشكل عميق في المناهج التعليمية، وليس كمواد ثانوية. فالتعليم هو خط الدفاع الاول ضد محو الذاكرة. إذ ان الشباب يلعبون دورا محوريا في حماية التراث الثقافي، وهم يشكلون القوة الاكثر قدرة على استمرارية نقل الذاكرة التاريخية للأجيال المقبلة.

يتمثل دور الشباب اولا في التوعية على اهمية التراث، سواء داخل المدارس أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي، من خلال نشر محتوى يبرز قيمة المواقع الاثرية، وتعريف الجمهور بتاريخها واهميتها الحضارية. كما يمكنهم المشاركة في الانشطة الميدانية، مثل الزيارات التراثية، المهرجانات الثقافية، وورش الحرف التقليدية، مما يعزز ارتباطهم المباشر بالموروث الثقافي، ويحول المعرفة النظرية الى تجربة حية. كذلك ينبغي دعم توثيق التراث ماديًا، وبطريقة غير مادية أيضا، عبر الارشفة الرقمية، التصوير، وتسجيل الروايات الشفهية، لضمان عدم ضياعها حتى في حال تضرر المواقع او اندثارها.

اضافة الى ذلك، يجب تفعيل القوانين الدولية التي تحمي التراث في اوقات النزاع، وتعزيز دور المنظمات مثل الأونيسكو في مراقبة الانتهاكات وتقديم الدعم الفني والمالي لإعادة الترميم.

إن مواجهة الحروب الثقافية لا تكون فقط بحماية الحجر، بل بحماية الوعي نفسه. فالشعوب التي تدرك قيمة تراثها قادرة على الصمود امام محاولات الطمس، بينما الشعوب التي تفقد ذاكرتها تصبح أكثر عرضة للتلاشي التدريجي، حتى وان بقيت على الارض.

ميرنا الشدياف

"الامن العام" اجرت حوارا مع استاذ التاريخ شارل الحايك.

■ كيف تقيمون واقع التراث اللبناني اليوم في ظل الحروب والازمات المتلاحقة؟

□ التراث اللبناني، كغيره من تراث شعوب العالم، ينقسم الى شقين: التراث المادي والتراث غير المادي. قبل الغوص في الكوارث، لا بد من الاضاءة على بعض الجوانب الايجابية، اذ ان لبنان، رغم مساحته الصغيرة، يضم 6 مواقع مدرجة في قائمة التراث العالمي التابعة للأونيسكو بوصفها تراثا ماديا، وهي: ارز الرب، جبيل، صور، عنجر، بعلبك، ومعرض رشيد كرامي الدولي في طرابلس الذي اضيف اخيرا. اما على صعيد التراث غير المادي، فقد أدرج الزجل اللبناني. التراث المادي، شأنه شأن البشر، ضحية للحروب على ثلاثة مستويات: التدمير، محو العلاقة القائمة بين المعالم والمجتمعات، واعادة البناء بعد الحروب. وهي غالبا ما تكون مدمرة ايضا، لأن اعمال الترميم في كثير من الاحيان لا تخضع للشروط العلمية. حاليا، يواجه التراث اللبناني، المادي وغير المادي، خطرا حقيقيا بسبب الحروب.

■ ما أبرز المواقع او الابنية التراثية التي تضررت خلال السنوات الاخيرة؟

□ قلعة شمع، لأن الحرب تتركز حاليا في الجنوب، وهي من المواقع التي تعرضت لضرر كبير وتدمير، اضافة الى مسجد بليدا، سوق النبطية التراثي، وعدد من المساجد الاثرية والكنائس. ثمة امر مشترك بين هذه المواقع المتضررة، فاذا اخذنا تراث الجنوب مثلا، نجد ضررا طال الارث الطبيعي، كشجر الزيتون، وضررا اصاب مساجد قديمة جدا تروي تاريخ التشيع الاثني عشري، وكنائس تاريخية توثق الوجود المسيحي العريق في الجنوب وجذوره، فضلا عن اماكن ذات طابع اجتماعي بامتياز، كسوق النبطية. تكمن الكارثة في ان تدمير هذه المعالم يؤدي الى تدمير الرابط بين المجتمع والارض التي عاش فيها. كما ان اعادة ترميمها تبدو صعبة في ظل حجم الدمار الهائل الذي تعرضت له، إذ أن ما حدث هو نفس كامل أكثر منه مجرد تدمير. ◀



تمكين البلديات من حماية اراثها وتفعيله، يمكن ان يجعل التراث ركيزة من ركائز التنمية المحلية.

■ كيف يمكن اشراك الشباب في الحفاظ على الهوية الثقافية والتراثية؟

□ عبر الثقافة والتعليم. فابتعاد الشباب عن التراث سببه الاساسي عدم معرفتهم بقيمته، لأن احدا لم يشرح لهم، خلال سنوات الدراسة والجامعة، اهمية هذا التراث. هذه المسؤولية تقع على عاتقنا نحن، في المجال التربوي، لا على عاتق الشباب. فمن الطبيعي الا يهتم الجيل الجديد بالماضي إذا لم يبن هذا الاهتمام عبر التعليم والتوعية.

■ هل التعاون بين لبنان والمنظمات الدولية، كالأونيسكو، فعال في حماية التراث؟

□ التعاون جيد. فخلال الحرب الاخيرة، حصل لبنان بسرعة قياسية على ما يعرف بـ"الحماية المعززة" من الأونيسكو لعدد من المواقع المهددة، وهذا دليل على متانة العلاقة، خصوصا ان لبنان من الدول المؤسسة للأمم المتحدة والأونيسكو. وبالتالي، فان هذه المواقع تعد نظريا محمية بموجب القانون الدولي.

■ ما الخطوات العاجلة المطلوبة اليوم إنقاذ ما تبقى من التراث اللبناني؟

□ علينا اعادة النظر في المناهج التربوية، ودمج مفهوم التراث والتوعية على أهميته داخل المدارس. فنحن لم نشغل فقط في حماية تراثنا بسبب الحروب، بل ايضا بسبب الاهمال وسوء الادارة، اذ كان هذا التراث يعاني اصلا اوضاعا سيئة قبل الحرب. من المستحيل القيام بأي عمل فعال من دون موازنات كافية وفرق متخصصة.

■ ما الرسالة التي تودون توجيهها الى اللبنانيين عن اهمية الحفاظ على تراثهم؟

□ يجب ان يكون للمواطنين دور اساسي في حماية تراثهم، لأنه أحد السبل لضمان استمرارية البلد. يكثر الحديث عن الهوية، لكن الهوية تحتاج الى تراث حي يدعمها، لذا علينا ان نحول هذا الكلام الى افعال: ان نقلل الكلام ونكثر الأفعال، في سبيل حماية هويتنا وتراثنا.

م. ش

□ الخطر موجود، لأن التراث يحتاج الى وظيفة لكي يستمر. إن اندثار بعض العناصر ليس هو الكارثة في ذاته، بل الكارثة ان تندثر من دون توثيق، فلا نستطيع نقلها الى المتاحف او الاستفادة منها لفهم كيفية عيش الاجيال السابقة. غالبا ما تكون الحرف التقليدية جزءا من سياسات

تربوية واقتصادية وسياحية، فنتحول الى منتجات فاخرة عالية الجودة. ففي الريف الفرنسية مثلا، تباع منتجات الالفندر الحرفية بأسعار مرتفعة، وفي مدينة لوكا الإيطالية التي تشتهر بصناعة الجلود منذ قرون، تباع المنتجات الجلدية بأسعار باهظة، فيما يواصل الحرفيون الذين ورثوا المهنة عن اجدادهم العمل فيها وتحقيق الارباح. اما في لبنان، فمثل هذا النموذج غير موجود، رغم امتلاكنا كل المقومات. فسوق الزوق التراثي مثلا اشتهر بصناعة العباءات، ومن المؤسف الا تنتج اليوم عباءات محلية تباع بأسعار مرتفعة وتحمل الطابع المشرقي الاصيل، فيما نستوردها من الخارج بألوان وتصاميم لا تمت الى تقاليدنا بصلة. كذلك الامر بالنسبة الى صناعة الزجاج في الصرند، وغيرها من الحرف التي تستحق الدعم.

■ ما دور البلديات والمجتمع المحلي في حماية التراث؟

□ يجب تمكين البلديات، فهي تمتلك الرغبة في حماية الارث الثقافي وتفعيله، لكنها لا تملك الصلاحيات القانونية الكافية، لأن الدولة لم تمنحها هذه الصلاحيات. لذلك، من المفيد اعتماد سياسة لامركزية في ادارة التراث، مع الحرص على توافر الخبرات الاساسية لحمايته، وهي موجودة بالفعل، سواء في مديرية الآثار او في القطاع الخاص. ان

العشرين، علما ان هذه الحالة نادرة عالميا. بيروت مدينة قديمة جدا، لكن لا شيء يكشف قدمها للعين سوى بعض الآثار التي جرى الحفاظ عليها بطريقة غير جدية وغير رسمية. عدم المحافظة على التراث يؤدي الى خلق تراث زائف، فنختزل الهوية اللبنانية بفنجان قهوة، وهذا امر خطير.

■ هل هناك خطر حقيقي من اندثار بعض الحرف والعادات التقليدية اللبنانية؟



بل يبنى عبر سياسات ثقافية وتربوية، وممارسات تجعل المجتمع الحامي الاول لتراثه، والرافض لأي عملية تدمير تطاله.

■ ما اهمية الحفاظ على البيوت التراثية القديمة في المدن اللبنانية؟

□ التراث يؤمن الاستمرارية في زمن الازمات، ويذكرنا بما كنا عليه وما نحن عليه اليوم. فتدمير المباني التراثية يسمح بمحو الهويات واستبدالها بأخرى، حتى وان كان التبديل سيد التاريخ. علينا ان ننقل من جيل الى جيل بعض الخصائص التي تميزنا عن الآخرين، وهذه الخصائص لا تقتصر على القيم والافكار والممارسات، بل تشمل ايضا المعالم العمرانية التي تمنح المدن طابعها الجميل والخاص. صحيح انه من المستحيل الحفاظ على كل شيء، لأن المدن في تغير دائم، ولبنان بلد صغير المساحة، لكن من الضروري المحافظة على ما تبقى، لأنه قليل جدا. فمن غير المعقول ان تكون بيروت مدينة عريقة بهذا القدر، ولا نجد فيها الا عددا محدودا جدا من المباني التي تعود الى ما قبل القرن

□ لبنان في حاجة الى مقاربة جديدة لآليات الحماية القانونية. فالقانون موجود، لكن تطبيقه يفتقر الى آلية صارمة، وفي كثير من الاحيان يتم التحايل عليه، فتهدم الابنية التراثية لإقامة مبان اخرى مكانها. كما لا توجد آلية رقابة فعلية، ولا اجراءات رادعة عند بدء عمليات الهدم، إذ أن آلية التنفيذ والمحاسبة شبه غائبة.

■ ما هي اسباب تراجع الاهتمام الرسمي بحماية التراث؟

□ انها عملية تفكك متكاملة. صحيح ان جزءا كبيرا من المسؤولية يقع على السلطات، لكن جزءا آخر تتحمله المجتمعات، فيما يتحمل القطاع التربوي القسط الاكبر، لأنه لا يشرح للطلاب اهمية التراث، بل يختصره غالبا بالفولكلور، فيتحول التعرف على التراث اللبناني الى نشاط موسمي يمارس ليوم واحد في السنة داخل المدارس. التراث عملية مستمرة، لذلك فالمشكلة ثلاثية الابعاد: الدولة، والمجتمع، والتعليم. الحفاظ على التراث يتطلب خلق رابط بين المجتمع وتراثه، وهذا الرابط لا يتكون تلقائيا،

■ هل يشكل الاهمال احيانا خطرا أكبر من الحرب على التراث اللبناني؟

□ طبعا، فالاهمال وعدم التوثيق يشكلان خطرا كبيرا، لأن التراث يعيش عبر الاستمرارية، أي عبر انتقاله من جيل الى جيل، مما يستدعي التوثيق، والاهم من ذلك الممارسة. فعندما تتوقف ممارسة العناصر التراثية، تتحول الى مادة متحفية وتصبح آثارا جامدة. الفرق بين التراث والاثار ان التراث حي وله وظيفة مجتمعية. فجامع تاريخي، او كنيسة تاريخية، او سنيانة معمرة، او قلعة قديمة، جميعها تروي قصصا من تاريخ بلادنا. لكن الكارثة الاكبر تكمن في ان لبنان، حتى في زمن السلم، يشهد اهمالا واسعا للأبنية التراثية، وخصوصا للتراث غير المادي. فعلى سبيل المثال، الزجل اللبناني مدرج في قائمة التراث غير المادي العالمي، ومع ذلك لم يوثق سوى القليل من الزجل التقليدي في لبنان.

■ الى اي مدى تطبق القوانين التي تحمي الابنية والمواقع التراثية في لبنان؟